فصل

في حكومة الشام قبل حوادث سنة ١٨٦٠

نرى من الواجب ايضاح حالة الشام وحكومتها في الاعوام التي سبقت الحوادث الشهيرة لما لها من العلاقة الكبرى بالحروب والمذابح التي سوف نرويها فنقول بالاختصار ان البلاد كانت كما هي اليوم تابعة للدولة العثمانيَّة يحكمها العمال من الاتراك واشراف البلاد باسم السلاطين العظام الذين شادوا لهذه السلطنة صروح المجد والفخار واحسنوا معاملة رعاياهم حتى اجتذبوا اليهم القلوب وصيروا مملكتهم اقوى ممالك الارض ولا غرو فبالعدل تقوى الممالك

✻ مقاصد السلاطين العظام ✻

وكان سلاطين آل عثمان العظام الذين اسَّسوا هذه الدولة يريدون ان يعيش الناس في ظلهم آمنين مستريحين فاتخذوا العدل لهم شعاراً وجعلوا مراعاة العوائد والعقائد منارًا وابقوا لكل امةٍ حكموها الخيار في المحافظة على لغتها وتقاليدها ودينها فضمنوا بذلك رضاء الاهالي من كل جنس ومذهب عن دولتهم وحب هؤلاء الاقوام لحكومتهم وتسليم الافراد والجماعات لارادتهم حتى دانت لهم الرقاب وخضعت لهيبتهم الطوائف. بمثل هذا قامت سلطنة آل عثمان واتسع

نطاقها وازداد سوددها وعظمت قوتها ورسخ قدمها في البلدان الكثيرة التي ملكتها ببسالة سلاطينها وقوادها

وقد عادت هذه السياسة القويمة الناجمة عن نيّات حميدة وسرائر طاهرة عادلةٍ بجميع ما قصد منها بحيث لم يمضِ الوقت القصير على العرش العثماني الاَّ واضحت رايتهُ الهلاليَّة تخفق في جهات كثيرة من الارض تظلل بظلها امماً كثيرةً رتعت في بحبوحة العدل والامن والطمأنينة مع انها كانت سبباً لالقاء الرعب والخوف في قلب كل عدوٍّ يحاول ان يأتي امراً نكراً لفساد في سريرتهِ او مطامع في نفسهِ

وحافظ السلاطين العثمانيون العظام في كل ادوارهم على قواعد هذه السياسة التي اوجبتها عليهم عدالة مبادئهم وسمو مداركهم وحبهم لراحة رعاياهم. وكانوا آونةً بعد اخرى يأتون بالادلة الحسيَّة الظاهرة على استمرارهم في اعتبار هذه المبادئ الحسنة فان ساكن الجنان السلطان محمد الفاتح عند ما فتح القسطنطينيَّة استدعى البطريرك بيساديوس اليهِ وسلمهُ بيدهِ الشريفة التاج وعصا البطريركيَّة الرعويَّة وطيَّبَ خاطرهُ واقرهُ على جميع ما كان لهُ من الحقوق والامتيازات وسياسة رعيتهِ الروحيَّة ايام الدولة الرومانيَّة وسلمهُ فرماناً سلطانياً صار بذلك قاعدة لكل فرمان من هذا النوع صدر بعدهُ ورخص لهُ بممارسة طقوسهِ وعوائدهِ الدينيَّة بكل حريَّة ومنع عنهُ كل معارضة بذلك. وقد منح هذا السلطان العظيم مثل هذه المنح الجليلة لجميع الطوائف الاخرى في ممالكهِ الواسعة فكان كلٌّ يمارس دينهُ وعوائدهُ ولغتهُ على ما يريد. وقد كان خلفاؤهُ من السلاطين العظام يسيرون

على هذه المبادئ ويزيدون على هذه المنح والامتيازات كلما اقتضت الاحوال ودليل ذلك ما صدر في مدة كلٍّ منهم من الفرامانات لرؤساء الملل ومحافظة اولئك السلاطين العظام على ما في تلك الفرمانات من الانعامات والامتيازات

وسهر اولئك السلاطين العظام على راحة الرعيَّة على اختلاف عقائدها ونحلها بكل معتدٍ على حقوقها وشرائعها مهما كان مقامهُ ورتبتهُ فان ساكن الجنان السلطان محمود الثاني لما رأى الاختلال الواقع من الجنود التي كانت تؤلف من الانكشاريَّة وغيرهم وما كان يصلُ بالرعيَّة من شرها وتعديها على المسلمين وغير المسلمين خصوصاً وما ظهر من عصيانها من وقتٍ الى آخر حتى صارت آلة تسلب امن المملكة بعد ان كانت الآلة الوحيدة لحفظ النظام الداخلي والامن الخارجي عمل على ابادتها منعاً لشرها وتمكن من ذلك فاباد تلك الزمر العاتية عن آخرها وانشأ نظاماً عسكريًّا جليلاً حسب النظام الاوروبي فكان من نتائج عملهِ هذا الاقتصاص من المجرمين وحفظ راحة صنوف الرعايا في الداخل وتجديد سطوة المملكة في الخارج . وساكن الجنان السلطان عبد المجيد رأى ان نظامات المملكة الداخليَّة قد شابها الخلل ولم يعد بها الكفاءة لضمان الحقوق لجميع اصناف تبعتهِ فعمد الى اصلاح هذا الخلل بوضع نظاماتٍ جديدة دعاها بالتنظيمات الخيريَّة واصدر فرمانًا سلطانيًّا بها . وكان من خصائص هذه التنظيمات التي صارت بدء عصرٍ جديد للممالك العثمانيَّة ان يتساوى جميع افراد الرعيَّة من اي مذهبٍ وجنسٍ ورتبة في جميع الحقوق الوطنيَّة . نعم ان

هذا العصر الجديد لم يغير طباع بعض الظالمين كاحمد باشا الذي كان واليًا على سوريَّة سنة ١٨٦٠ الاَّ ان رغبة هذا السلطان المجيد ورجال دولتهِ الامناء في مصلحة الرعيَّة وخير المملكة قد اخرجت هذه المقاصد الخيريَّة من حيز القوة الى حيز الفعل واقتصت ممن قاومها وابدى التعدي على الرعيَّة كما اقتصت من احمد باشا الذي سنأتي على ذكر اعمالهِ وجعلتهُ هو ومن جرى مجراهُ يريد بالرعيَّة شرًّا وفسادًا ويعمل على تفريق كلمتها والقاء الشقاق والعداء بين جامعتها

فيظهر ممَّا تقدم ان الفتن والمذابح التي ورد ذكرها في تاريخ الشام لم تكن بقصد احدٍ من السلاطين او رجال دولتهم الامناء بل من العمال الاردياء ومن تعدي الفئات التي ابادها السلطان محمود الثاني كما تقدم وممن كان يقتدي بها من الاهالي . وكان بُعد المسافات وضعف وسائط الاتصال في تلك الازمنة من اعظم ما ساعد اولئك المعتدين على اجراء ما كانوا يجرونهُ من الاعمال المغايرة لرضاء سلاطينهم وولاة امورهم ومع ذلك فهم لم ينجوا من القصاص الصارم عند ما بلغ خبر فعلهم اذان السلطان كما عوقب احمد باشا وغيرهُ

الايالات

وكانت البلاد اربعة اقسام اداريَّة تسمى ايالات الاولى ايالة حلب والثانية ايالة دمشق كانت تتناول اواسط البلاد ممَّا يلي الشرق والثالثة ايالة صيدا او بيروت وكانت تتناول اواسط البلاد ممَّا يلي الغرب . والرابعة ايالة القدس الشريف . وكان لكل ايالة والٍ مستقل

يخابر الباب العالي رأساً في امور ايالته الاَّ ان الايالات الاربع كانت خاضعة لسلطة واحدة عسكريَّة يقيم رئيسها في دمشق الشام ويسمونهُ مشير العرضي الهايوني الخامس وعلى هذا المشير ادارة الشؤون العسكريَّة في سوريا كلها (ولم يزل هذا النظام الى اليوم) وعليه ان يقدم القوات اللازمة عند اللزوم لكل والٍ طلب منهُ ذلك لاجل تقرير الامن في البلاد وحفظ نظامها

وكان رجال العسكريَّة في ذلك الوقت (الاَّ القليل منهم) من ضباط كبار وانفار صغار خليطاً من ولايات الدولة في اوربا واسيا الصغرى وكان العرب بينهم قلالاً لان نظام العسكريَّة لم يكن نافذاً فيهم

المتسلميَّات

وقسمت كل ايالة اقساماً كل قسم منها عبارة عن مدينة ونواحيها وسميت هذه الاقسام متسلميَّات . وكان لكل قسم حاكم يسمونهُ متسلماً يعينهُ الباب العالي رأساً او والي الايالة ومرجع امورهِ في متسليتهِ الى والي الايالة التابع لها . وكان لعظماء الاهالي نفوذ كبير لدى المتسلمين حتى انهم كانوا يعارضونهم في كثير من الامور ويساعدونهم على اجراء ما لهم رغبة او غايات خصوصيَّة فيهِ واما المتسلمون فكانوا يسعون وراء منفعة انفسهم اولاً لا يهمهم خربت البلاد او عمرت ولم يكن لهم قانون يجرون عليهِ ويؤاخذون على مخالفتهِ ولكنهم ساروا بحسب الاهواء والاميال وكثيراً ما سعوا في تفريق الرعية حتى يساعدهم الانقسام على نوال ما يبتغون

﴿ حكام الجبال ﴾

اما الجبال وبعض اقسام البلاد فكان يحكمها بعض الامراء والبكوات والمشايخ تولوا شؤونها منذ زمن طويل وكانت لهم اقطاعاً يحكمونها على ما يرون ويرجعون في الاحكام الى الايالة التابعين لها . واشتهر عن هؤلاء الحكام الاستبداد والجور وكثيراً ما كانت تقوم الحروب بينهم ولطالما هبَّ بعضهم الى الثورة وجرد سيفهُ لمحاربة جنود الدولة . وكان بعض حكام الايالات يستعينون بهم على ايالة اخرى او على مشايخ ايالتهم ولهذا ساد الاضطراب والانقسام الدائم وكانت امنيَّة القوافل والمسافرين في الطرقات مسلوبة الاَّ اذا ادوا ضريبة لكل حاكم يمرون في بلادهِ وللعرب سكان البوادي ضرائب على البلاد يسمونها خاوات اذا تأخر الاهالي عن دفعها حمل عليهم البدو ونهبوهم ونكلوا بهم وتعذر سلوك الطرق على المسافرين حتى انهم كانوا يتألفون جماعات مسلحة اذا راموا السفر الى احدى المدن او الى جهة من جهات البلاد ليمكن لهم دفع النوازل ورد المهاجمين والمعتدين وان يكن العدد الوافر منهم لم ينجُ من الجور والاعتداء . وكان المسافر في تلك الازمنة كمن يقتحم خطراً عظيماً لانهُ فضلاً عن اخطار الطرق كان اوباش المدن شراً عظيماً على أُولئك الغرباء الذين يأتونها من المقاطعات وخصوصاً من المسيحيين الذين كانوا يصادفون انواع الاعتداء والخسف اينما ساروا وكان اهالي لبنان مع ما هم عليهِ من شدة البأس

في تلك الايام يحسبون الذي يسافر منهم الى احدى المدن نابغة في الجسارة والاقدام

﴿ الاموال الاميريّة ﴾

ولم تكن الحكومة في تلك الايام تسأل حكام المقاطعات في اغلب الاحيان الاَّ اداء الاموال الاميريَّة المضروبة على بلادهم فكانوا يجمعونها من بلادهم اضعافًا بحسب ما يبدو لهم فيظلمون او يرحمون على ما يريدون ويبتغون والناس يحتملون ذلك ولا يجسرون على الشكوى او ابداء المعارضة لحاكمهم في بيان تظلمهم فاذا اقدم واحد على ذنب التظلم للحاكم او لالهِ وعرف بهِ الحاكم جوزي واهلهُ بالدمار وقلع الآثار . وكان اذا حارب احد هؤلاء الحكام حاكمًا آخر او عصى الحكومة او انتصر لحليف لهُ يلتزم رجال الاهالي عند سماع نداء الحرب ان يتجندوا تحت راية حاكمهم على نفقة انفسهم ولا يمكن لاحدهم ان يتقاعد عن ذلك والاَّ فيصير عرضةً لكل ويلٍ وبلاء . وكثيرًا ما ساق العسف بعض هؤلاء الحكام الى مجاوزة حدود الادب والشهامة بالاعتداء على اعراض الرعيَّة وهتكها

﴿ حالة المدن ﴾

ولم تكن حالة المدن افضل من حالة الارياف ولكنها كانت اكثر تعاسة واشدَّ شقاء ولا سيما في اوائل هذا القرن حيث بلغ الاختلال

حدة في البلاد وحل الويل فيها وعم البلاء وزاد الشقاء اذ صارت هذه المدن مرسحاً للاعتداء والجور وميداناً للخصومات والثورات المتواصلة وكثرت المصابات لا رداع لها ولا وازع وجعلت شأنها تنفيذ مآربها بالقوة لا بالحق غير ناظرة الى ما سوى النفع الخاص ولا عالمة بغير القسوة الهائلة والجهل الكثير

﴿ قسّم تملك ﴾

واما سبب هذا الاختلال فهو السياسة السيئة التي اتبعها الولاة لغاية في النفس يقصدون منها بلوغ مآربهم ونيل مقصدهم . هؤلاء جعلوا شعارهم المثل القائل « قسّم تملك » فكانوا يسيرون على هذه الخطة الدنيئة ويسعون في تقوية فئة على أخرى من الناس فينالون مآربهم من الطرفين . وقد بلغوا مرادهم في بادىء الامر الآن سياستهم اضرت بهم في آخر الايام فصارت البلاد الى الهمجية والاختلال وفقدت اسباب الراحة وباتت دائرة نفوذ الولاة ضيقة حتى انحصرت في بعض الضعفاء وآل الذمة

ثم ان تقسيم الاهالي على انفسهم اوجب على كل قسم ان يكون ذا قوة يستند عليها للثبات امام خصمه او للتغلب عليه فلهذا ولما يوجبهُ الانقسام من تباين الغاية والمطامع سيما بين اهالي الوطن الواحد صار للقوة المقام الاول فتشدد اصحابها وتمادوا في القحة حتى صاروا ضربة على الاهالي وعلى انفسهم ايضاً . وقد اوجبت سياسة الضعف هذا الاختلال العظيم في وجاقات الجند فصاروا الى العداء والتنافر وعدم الطاعة لولاة

الامور (الاَّ اذا كان لهم غرض في الطاعة) ومن ثم جاروا بالرعية وزادوا الاحوال تعاسة وشرًّا ففقد كل نظام وباتت البلاد في حالة الفوضى بلا ادارة تجعل الناس في مأمنٍ على انفسهم واعراضهم واموالهم وانحصرت السطوة والنفوذ في اصحاب الغايات والجهال الذين لا يعرفون الاَّ الغلظة والتوحش ويفتخرون بالشر واقتراف الكبائر . وقد كان في البلاد قوم من آل العلم والوجاهة غير راضين عن تلك الحالة المختلة وعارفين مخالفتها للشرائع باسرها الاَّ انهُ لعدم الحظ لم يكن لهم من الوسائط والقوة ما يردُّ هذا التيار المندفع الذي كان ينشأ عنهُ كل يوم ويل جديد ومخاوف عديدة توجب القلق والاضطراب . وهذه الاحوال المختلة جعلت الناس عرضة للاخطار المستمرة لا سيما الذين كان الفجار يطمعون بمالهم فاضطروا الى تجنيد قوة خصوصية تصونهم وعمد اصحاب المنازل والمقامات الى انفاق المال على رجال من الاشداء كانوا يذودون عنهم ويصونون حرمتهم

✻ امور الولاة ✻

اما الحكومة فكانت بيد والي الايالة وكتخدائيهِ او كاتم سرهِ وكان هؤلاء على استبداد في الامور التي يقدرون على اجرائها وكثيرًا ما كان الوالي يصادر الناس في اموالهم وخصوصًا آل الذمة ويأمر بقتل عمرو وزيد ويغدر ببكر وعبيد وتنفذ احكامهُ بدون ذنب يرجع الحاكم اليهِ ولا شرع يعول عليهِ . وتحكى حكايات كثيرة تدل على هذا الجور منها ان احد الولاة كان مارًّا في احد اسواق

دمشق وكانت الاسواق في ذلك العهد ضيقة فمرَّ رجل ومعهُ دابة محملة عنبًا فمست الدابة الوالي فامر بقطع رأس الرجل فقطع في الحال . وامثال هذه الحكاية اكثر من ان تعد

ديوان الايالة

وكان في مركز كل ايالة ديوان يؤلف من بعض علماء المسلمين والوجهاء يرئسهُ الوالي من شأنهِ النظر في امر الاموال الاميريَّة ومال الجزية وغير ذلك . ولم يكن لهذا المجلس نظام او اوقات للاجتماع ولكنهُ كان يجتمع عندما يريد الوالي او اذا حدث ما يوجب انعقادهُ

وكان الحكم في فصل المشاكل الجنائية التي تقع بين بعض الناس وتصل للحكام منوطًا في اغلب الاحيان بالقضا باشي ومركزهُ في باب سراي الوالي ثم بالتفكجي باشية وهم رؤساء القره قولات في المدن وكان هؤلاء القوم أُميين جهالاً يحكمون بحسب اهوائهم وافكارهم وتقودهم الرشوة ولم يكن لهم قانون يعرف او نظام يوصف

واما الاحكام الحقوقيَّة وما شاكلها فالذي كان يسلم من تداخل الوالي واحكامهِ كان يحال على الاحكام الشرعيَّة . واما مسائل الاحوال الشخصيَّة فكانت منوطة بكل طائفة تحكم بها بحسب قواعد دينها

اسباب القلاقل

واما الثورات التي كانت تحدث والاعتداءات التي كانت تقع على الذميين وآل السكينة من المسلمين فكان اكثرها من الجند ذلك لان القوة الجندية بالاجمال كانت مؤلفة من رجال جهلاء تمادوا في القحة

والفجور اذ لم يردعهم نظام ولم تردهم قوة . وكان الجنود ثلاثة اقسام رئيسية منها اثنان وطنيان وهما الانكشارية والقبيقول وقسم دخيل وهو جنود مأجورون كان يحضرهم الولاة معهم كرس خصوصي ثم ويؤلف هذا القسم من طوائف واجناس مختلفة كالارناؤود والمغاربة والموصلة والتكارنة والترك والدلاة وغير ذلك وكان العداء بين الاقسام الثلاثة قائماً على قدم وساق وقد نشأ عنهُ حروب كثيرة بين هذه الاقسام المتضاغنة فتسبب عن ذلك مخاوف كثيرة ولحق بالاهالي اضرار عظيمة حيث كانت تنهب الدكاكين وتقفل الاسواق وتتعطل الاشغال ويتعذر على ابناء السبيل الخروج من بيوتهم . وكم من مرة اضحت بعض المدن وخصوصاً الشام وحلب مطعماً للنار من جراء ذلك ولم ينصرف المشكل الاَّ بمداخلة الولاة او بعض الاعيان ولكن ليعود الشر بعد وقت قصير عند ما يحدث لهُ موجب صغير وما ذلك الاَّ لعدم مقاصة المجرم وقلع جرثومة العداء ولطالما نهض القوم على الولاة انفسهم وقتلوهم وعساكرهم كما جرى في دمشق سنة ١٨٣١ لسليم باشا حيث قتل هو ومعظم عساكرهِ لاجل ضريبة جزئية فرضها على الدكاكين والمخازن والبساتين . وقد كان الاعتداء على العرض والقتل مما يحدث في كل يوم

ولاجل تكرار هذه الاحوال الشنيعة كنت ترى شوارع المدن وحاراتها كثيرة الابواب العظيمة تقفل آن الثورات وقاية لمن ورائها من السكان او لاجل ان يقيم الثائرون وراؤُها متاريسهم لصد اعدائهم . اما خانات التجارة فلم يكن الثائرون يدخلونها وقيل ان ذلك

احتراماً لها الاَّ ان هذا قول ضعيف والمرجح ان لم يكن احترامها وعدم الاعتداء عليها الاَّ لكونها قويَّة ولانها كانت ذات ابواب حديديَّة متينة جدًّا ولانهُ كان يحرسها قوة كافية من الحراس لرد المهاجمين عنها ولان اكثر التجار كان لهم اعتبار عند رؤَساء الجند لكثرة ما يقدمونهُ لهم من الهدايا والهبات

﴿ الوجاقات ﴾

وكان كل قسم من العسكر يسمى وجاقًا الاَّ ان اكبر هذه الوجاقات واكثرها رجالاً وقوة ونفوذًا كان وجاق الانكشاريَّة ثم وجاق القبيقول وكانت اكثر مدن الشام تقسم عسكريًّا قسمين قسم انكشاري وقسم قبيقولي ورؤَساء هذه الوجاقات يسمون اغاوات . وكان رجال كل قسم يتشمون على يديهم بشارة وجاقهم واكثر اجتماعهم في القهاوي وجرت العادة ان يرسم فوق وجاق كل قهوة اشارة الوجاق الذي يجتمع رجالهُ فيها ولم يكن لهم نظام عسكري في ذلك الوقت الاَّ ان رجال كل حارة كانوا يخضعون لآغا الوجاق الحالّ فيها والجميع يخضعون لكبير الوجاق المنتخب من بين الاغوات لامتيازهِ بالجسارة وصداقة الوالي او لغير هذا ولم يمكن لحدَث او امرأَة شابة جميلة المرور امام القهاوي التي يجتمع فيها العساكر خيفة ان يضحوا فريسة أُولئك الجهال

ولما كان نفوذ هذين الوجاقين بالغًا حدًّا عظيمًا ويدهما على الاهالي ثقيلة كثر المنتمون لهما من الرجال والمنضمون اليهما اما لغاية سلوك

مسلكهما او بغية الصيانة من الاعتداء من آل الوجاق نفسهِ او للاستعانة بهِ على الغير عند الحاجة وقد انضم اليهما وخصوصاً الى الانكشارية كثيرون من اصحاب الوجاهة و بعضٌ من الذميين للغاية المذكورة . ولما كثر عدد رجال هذين الوجاقين صار معظمهم ينفقون على انفسهم من جيوبهم فلذلك اضطروا الى العمل مثل سائر الناس فكان يذهب الرجل منهم الى عملهِ متقلداً سلاحهُ ليسهل عليهِ الانضمام الى رجال وجاقهِ عند اللزوم . او يفعل ذلك المدافع عن نفسهِ اذا عرض لهُ عارض في طريقهِ . اما العطل من هؤلاء الرجال فكان شأنهم الجلوس في القهاوي ومعاقرة الخمرة ومصادرة الناس والاعتداء على اولادهم وحريمهم بحسب ما كانت تصورهُ لهم بنت الحان في رؤوسهم او ما تطابهُ شهواتهم القبيحة وكثيراً ما كانوا يطلقون بنادقهم او يعملون سيوفهم بمارٍّ على غير سببٍ ولا يسألون عما فعلوا . ومع ذلك فكان يوجد فيهم عدد عديد من آل الشهامة والمروءة يدافعون عن الاعراض و ينتصرون للضعيف ويحفظون الذمام ويجيرون المستجير

﴿ فئة المعترين ﴾

ثم ان عدم وجود حاكم قادر ينصف المظلوم من ظالمهِ ويقتص من المعتدين ويضمن للرعيَّة الصيانة اوجب ظهور القوة الافرادية فلذلك كثر في تلك الايام الرجال الجبابرة الاشداء من المسلمين والذميين غير المنتمين لحزب عسكري والمتكلين على قوتهم ونشاطهم .

وكان لهؤلاء الرجال الذين يسمونهم معترين اعتبارًا واحترامًا عند آل الوجاقات وبقية الناس . ومما يحسن ذكرهُ ان هؤلاء المعترين كانوا اصحاب شهامة ومروءة عظيمتين يحكى عنهم حكايات كثيرة صادقة نورد شيئًا منها على سبيل الفكاهة . يحكى ان رجلاً من الوجهاء بين المسيحيين مرت امرأتهُ وهي خارجة من الحمام باحدى الحواري فصدف ان احد رجال الانكشارية مرَّ من هنالك فراقت في عينيهِ وتأثرها حتى عرف بيتها ورجع فتربص لزوجها حتى رجع من اشغالهِ فقال لهُ استعد ايها الرجل لعشاءٍ ومسكر وقل لامرأتك ان تحضر لاني سآتي بعد ساعة لعندكم ففهم الرجل مقصد الانكشاري وما صمم عليهِ من هتك عرضهِ فكبر عليهِ الامر وكان لهُ صاحب مسلم من المعترين فذهب اليهِ وقص عليهِ خبرهُ فقال لهُ اذهب لبيتك ولا تخف واعد للرجل العشاء والشراب وانا ساتبعك فذهب الرجل الى بيتهِ حزينًا ليعمل ما طُلب منهُ صاغرًا وبعد القليل حضر الانكشاري فاقتبلهُ بوجهٍ باشٍّ فاخذ هذا بمعاقرة الخمرة وطلب المرأة لتسقيهُ فلم يسعها الاَّ الحضور وهي مرتجفة وجلة . ثم حضر المعتر بسلاحهِ واختفى في البيت وقال لصاحبهِ انهُ عند ما يتعشى الرجل و يبلغ بهِ المسكر حدهُ اخبرني ففعل صاحب البيت فنهض المعتر من كمينهِ وهجم على الانكشاري قائلاً اتعلم ان هذا بيت صاحبي وتعتدي عليهِ ثم ضربهُ بسيفهِ وقطع رأسهُ اما الرجل وامرأتهُ فخشيا عاقبة الامر واتفقا على مبارحة المدينة فرحلا عنها ولم يرجعا اليها . وامثال هذه القصة كثيرة لا محل لايرادها الآن

التعصب الديني

وكان التعصب الديني آخذاً مركزاً عظيماً عند الناس في ذلك الحين كما ذكرنا حتى تجاوز القوم شرائط الدين وعدوا كل من كان خارجاً عن مذهبهم كافراً يجوز الاعتداء عليهِ لا اثم في اذلالهِ ناسين بان كل دين لا يجيز الاَّ رعاية الذمي والذود عنهُ والمحافظة على حقوقهِ ومعاملتهِ بالحسنى وكان العدد الكبير من العلماء الاعلام وآل التعقل يعلمون ذلك ولم يمكن لهم ردع المعتدين في زمن عمت فيهِ الفوضى وصار الحكم للهمجيَّة. وقد اوجب هذا التعصب على آل الذمة الانضمام في السكنى ليقدروا على ممارسة دينهم وتخف وطأة الغير عنهم فيخف ويلهم نوعاً ولم تزل كل طائفة في اكثر مدن سوريا تسكن في حيٍّ خاص بها دون سواها

حالة النصارى

وكان النصارى عرضة للاهانة والذل اكثر من كل اهل الطوائف الاخرى يسيء معاملتهم كل واحدٍ ما خلا اهل العلم والعقلاء ممن كانوا يذودون عنهم ويحمونهم واذ لم يكن لهم مخرج من ذلك الفوهُ كما الف مذلوهم اذلالهم . فكان النصراني حيثما توجه ينعت بالكفر ويشتم صليبهُ ويهان ويحتقر وتقلب عمتهُ ويصفع الى غير ذلك وان سار في محلة المسلمين تبعهُ الصبيان قائلين لهُ « نصراني كلب عواني . دقوله بالصرامي . قالت امهُ فينه . ضربه تقلع عينه » وامثال هذه من القبائح فكان يحتمل كل ذلك صابراً على بلواهُ لا يفوه ببنت شفة ولا يقدر

على غير الاستجارة بتعقل مسلم اذا صدفهُ فيحاول هذا ابعاد الصبيان عنهُ فان اطاعوهُ كان بهِ او لا فيضطر ان يتركهُ وشأنهُ آسفاً من هذا العداء . وكان المسلم اذا مرَّ بمسيحيٍّ يقول لهُ اشمل اي سر عن اليسار فيلبي هذا الامر صاغراً واذا كثر المارَّة ما بين ذاهبٍ وآيبٍ كثر شقاؤهُ ولم يعلم المسيحي كيف يسير فيدعى حينئذ الى الطورقة فيطورق اي يسير في الطاروق (الطاروق منخفض في وسط السكة يبلغ اقل من شبر انخفاضاً وعرضهُ من ذراع ونصف الى ذراعين وعلى جانبيهِ رصيفان للمارة ويسير في الطاروق البهائم محملة وغير محملة وفي الشتاء تجتمع فيهِ مياه الامطار وفي الصيف الاقذار) وهناك يصادف العناء الاكبر من البهائم واصحابها هذا الحيوان يدفعهُ وذاك يزحمهُ والسائق يوكزهُ والآخر يلكمهُ فلا يجد لهُ مخرجاً من هذا الشقاء الاَّ بوصولهِ لمحلهِ او بخلو الرصيف من المارة فيصعد اليهِ . وكثيراً ما كان اصحاب الدكاكين في الاسواق يسخرونهُ لقضاء ما يلزمهم من الاشغال او يستعملون اهانتهُ واسطة لاذهاب ملالهم وتفريج كربهم فكان احد اصحاب الدكاكين يناديهِ تعال يا معلم فيأتي فيقول لهُ تقدم فيفعل فيصنعهُ ويكلفهُ ان يذهب ويحضر لهُ حاجةً او ان يليسهُ مركوبهُ او يرفعهُ لهُ من امام دكانهِ او ان يساعدهُ في ترتيب دكانهِ وغير ذلك وان كان يريد المزاح معهُ فاما ان يهمس في اذنهِ شاتماً اباهُ او يقول لهُ امراً آخر او انهُ يتناول عمتهُ عن رأسهِ ويصفعهُ ويرمي العمة الى جارهِ ويقول لهُ اذهب وخذها منهُ فيذهب ليأخذها فيصادف من الثاني ما صادف من الاول الى ان

يقدر الله لهُ وجود واحد يشتغل في بيعهِ وشرائهِ فيسلمهُ العمة او يكون من اهل الصلاح والانسانيَّة فيدفعها اليهِ و يصرفهُ لعلمهِ بان معاملة الذمي هذه لا تجوز (وقد كان كثيرون من الاسلام ينكرون على اخوانهم هذه الافعال الغير الجائزة) وكان المضطهد المسكين يظهر البشاشة والرضا و يسلم ذاتهُ للعذاب والويل . وكثيرًا ما كان يأتي ولدٌ او شابٌّ من وراء النصراني و يقلب لهُ عمتهُ و ياتي آخر فيدحرجها ثم آخر فيبعدها وكلما قصد صاحبها ان يتناولها يصفع و يرفس وكانت العمة كبيرة مستديرة محكمة الربط قويَّة الشد لحفظ ما يضعونهُ ضمنها من الاوراق التي يضطر الى وضع ورقة خراجهِ فيها ليبرزها حالاً عند الاقتضاء ولم يكن يمكن للمسيحي تركها لان اوراقهُ داخلها ومنها ورقة خراجهِ التي اذا سار بدونها عرض نفسهُ للخطر والاهانة الكبرى

السخرة

وكان القانون يحتم على الذمي ان يحمل على كتفهِ حيثما توجه كيسًا يسمونهُ كيس الحاجة لا يخرج من بيتهِ بدونهِ والغاية من هذا الكيس ان يضع فيهِ ما يسخرهُ المسلمون بحملهِ من خضار او غير ذلك . وصدف كثيرًا ان الرجل النصراني كان يستمر مسخرًا يومهُ بطولهِ مع انهُ من اصحاب العائلات يعيش بسعيهِ اليومي فتضطرهُ السخرة الى المبيت وعيالهُ بلا طعام او يستمد مساعدة جيرانهِ . ولما كان القوم لا ينفرون من النصراني نفورهم من اليهودي كان نصيب النصراني من التسخير اكثر وويلهُ اشد . ولكثرة تكرار هذه الامور التي لا تطاق

صار الناس يحسبونها بسيطةً وكانوا عند ما يجتمعون في سهراتهم يسألون بعضهم بعضاً من نوع التباسط ان كم مرة شتمت وصفعت وكم حمل حملت فيقول هذا كذا وذاك كذلك ومن دلائل اعتيادهم الذل وحسبانهم بانهم خلقوا لهُ وان كانوا يشعرون بثقلهِ هذه الحكاية وهي انهُ كان في اوائل هذا العصر شاب نصراني في دمشق من بيت كبير محسوباً من الظرفاء ومحبي البسط واصحاب الصوت الجميل فخطر لهُ ان يحيي ليلة طرب مع بعض خلانهِ فدعاهم الى سردابٍ تحت الارض ليقضوا ليلتهم فيهِ ولا يسمع صوتهم خارج الدار (لانهُ كان يحظر على النصارى الغناء الاَّ باذن خصوصي من الوالي والحاشية والاغاوات وشيخ الحارة) فقضوا معظم ليلهم في سرور وقد نسوا ما صادفوهُ في ذلك النهار وحسبوهُ كانهُ لم يكن . ولما لاح الفجر ذهبوا الى حمام فاستحموا وخرجوا قاصدين احد المطاعم وكان ذلك اليوم يوم حضور الحج من الحجاز فمرَّ بهم ولد من المسلمين وهم ياكلون وقلب عمة الشاب الذي ذكرناهُ فنزلت في المقلاة فاخذ صاحب الدكان من النار عوداً مشتعلاً وبدا يضرب النصارى بهِ ويشتمهم ويقول لهم عطلتم نهاري يا كفار فاجتمع الناس على صياحهِ فمنهم من شاركهُ بالشتم ومنهم من ساعدهُ بالضرب الى ان مرَّ شيخ فصرف الجمع وقال لصاحب الدكان اتصرف يومك يا رجل وهو موسم بهؤلاء الجماعة فاحبسهم بدكانك وبعد انتهاء الفرجة تقاضاهم اضرارك ففعل الرجل ذلك وسرَّ اصحابنا بهذا الرأي وعند انتهاء الفرجة اعاد المسلم الكرة على سجنائهِ وغرم كلاً منهم جملة مالٍ وصرفهم باسوإ حال

﴿ اموال الذميين ﴾

اما اموال الذميين فكانت مطعماً للحكام وغيرهم فمن جهة كانت الحكومة تنتزفها بزيادة مال الخراج الزيادة الفاحشة وبطلب القروض وما اشبه ذلك ومن جهة ثانية بالمصادرات وانتحال الاسباب فكان الحاكم اذا سمع بذمي غني عمل على سلب مالهِ فيستدعيهِ ويطلب منهُ قدراً كبيراً من المال على سبيل المساعدة ربما فاق ثروتهُ فياخذهُ منهُ فوراً او اقساطاً او يزجهُ في السجن ويتظاهر بانهُ يريد قتلهُ مدعياً بانهُ خالف الحكومة ومن خالف الحكومة حسب عاصياً ومشاقاً وحل دمهُ ومالهُ وعرضهُ فيسمع اهلهُ وذويهِ فيأتون بفدائهِ بما تصل اليهِ ايديهم من الوسائط والمال ولذلك صار شأن الغني من النصارى التظاهر بالفقر والمسكنة فكان لا يلبس الاَّ ابسط الاردية واذا عمل ثوباً جديداً وضع عليهِ رقعاً كثيرة ليظهر الفقر الاَّ ان ذلك ظهر للحكام فصاروا يرسلون الجواسيس من قبلهم لمعرفة اصحاب اليسار وصار هؤلاء الجواسيس شرًّا عظيماً على الناس فاق شر الحكام اذ كان الحكام لا يصادرون الاَّ اصحاب الثروة اما هؤلاء فلاجل نفعهم الذاتي وطمعهم بالارتشاء صاروا يتعرضون للجميع موسرين وغير موسرين ولا يتركون المرء الاَّ بتغريمهِ ما يصل اليهِ جهدهم هذا غير وشاياتهم وتعمدهم كل واحد بالاذى لدى الحكام. وكان للحكام وسائل كثيرة غير التي ذكرت لانتزاف مال الذمي منها ادعاء احد الجند عليهِ بارتكاب ذنب فيؤتى بهِ ويغرَّم وان عجز عن اداء الغرامة

اضطرت البطركخانة الى الدفع عنهُ والاَّ حل بهِ النكال او سيق الى الشنق ما لم يسعدهُ الحظ بشفاعة احد آل الوجاهة من المسلمين. حكي انهُ قبل احتلال ابرهيم باشا دمشق ببضعة اعوام كان الخفراء ليلاً في حارة النصارى فمروا بثلاثة شبان بيدهم المصابيح يودعون جيرانًا لهم رجالاً ونساءً واولادًا كانوا عندهم فتقدم احد الخفراء وقبض على الشبان المذكورين قبضًا شنيعًا فاتى والدهم وتداخل بالامر ودفع للرجل مبلغًا ليطلق سراح اولادهِ وابان لهُ واقعة الحال فاخذ الخفير المبلغ بعد ان تظاهر بالرضا في الافراج عنهم ثم ساقهم ليلاً الى دار الوالي فزجوا في السجن حتى الصباح ولما علم الوالي انهم من الموسرين ساقهم الى سجن القلعة (وكان من العادة ان الذي يسجن في القلعة تنتهي حياتهُ بالخنق) فعلم اهلهم بذلك واخذوا يسعون حالاً في خلاصهم وتوسطت البطركخانة وبعض اصحاب النفوذ من المسلمين فلم يفرج عنهم الاَّ بعد التعب الشديد ودفع مبلغ باهظ من المال. والحكايات التي تحكى كهذه لا تعد ولا تعدد لو شئنا سرد بعض الشيء منها لملأنا المجلدات الضخمة ولكنا نكتفي بهذا القليل لضيق المقام ورغبتنا في التقدم الى ذكر حوادث الحروب الهامة والمذابح الهائلة

✻ الضرائب الاخرى ✻

وفضلاً عن ضرائب الحكام كان على النصراني ضرائب اخرى للاهالي من الوجوه والمعارف من المسلمين والمتكيس بكيسهم من اغاوات الانكشارية وغيرهم وكان يقدم هذه الضرائب في اوقات معينة وغير

معينة كهدايا في الاعياد واستعطاف الخاطر ويقوم بذلك عن طيب نفس ليأمن على عرضهِ وحياتهِ وماله ويكون لهُ نصير عند الملمات هذا فضلاً عما كان يغرمهُ صغار الانكشاريَّة وغيرهم من طوائف الجند من المغارم النقديَّة وما كان يصادفهُ من هذه الفئات من الاعتداء العظيم والمخاوف الدائمة فان هؤُلاء القوم كانوا يطرقون ابواب النصارى ليلاً وهم سكارى آتين باوعية يطلبون املائها عرقًا فان املاها المطروق بابهُ تخلص من شرهم وان لم يكن عندهُ ارضاهم بالدرهم وان لم يكن لا هذا ولا ذاك الحقوا بهِ انواع الاهانة والشر الذي لا يطاق او حرقوا بيتهُ او دخلوهُ وانتهبوا ما بهِ وهتكوا الاعراض وقد جرى ذلك مرارًا عديدة ولم ينتهِ الشر الاَّ بتوسط احد المسلمين من المعترين او اصحاب الوجاهة

﴿ الحياة المرَّة ﴾

وخلاصة الامر ان الحياة كانت مرَّة صعبة على الذين رزئوا بحكم الوحوش الضارية الذين سولت لهم النفس انهُ يجوز لهم تعذيب من لم يتبع رأيهم في الدين وكان اكثر التعدي الذي يصل بآل الذمة من الجند وعمال الحكومة فاذا سلم الواحد من هؤُلاء المتوحشين لم يسلم من انذال الاهالي وارذال المسلمين ولطالما اضطرَّ الناس الى ترك دينهم واعتناق الاسلام تخلصًا من كل هذه المصائب وفات القوم ان الاديان لا تقوم بالاكراه وانها تنهى عنهُ وتأمر بالحسنى والمعروف تنكر على الناس الظلم والاستبداد ولكنهُ روح سرى في اهل هاتيك

الايام وهو الذي كان يشتد ويهب آونة بعد أُخرى فيبعث النفوس الامارة بالسوء على الحرب وسفك الدماء وتحدث من جراء ذلك الويلات الهائلة التي سوف ناتي على ذكرها

وكان هؤلاء الجهال يحظرون على اهل الذمة العيش بما تقتضيه وسائطهم وسعيهم ويمنعونهم من التردي بالاردية التي يستعملها المسلمون ولا يصرحون لواحدٍ منهم بركوب المطايا غير شخص البطريرك وحدث من جراء ذلك امور تتمزق منها الاكباد ويتفطر لامثالها الفؤاد من ظلم وشتم واهانة وهتك اعراض وسلب مالٍ وشنق اناس أبرياء لا ذنب لهم غير ادعاء بعض الانذال عليهم بتعديهم الحد المفروض لهم . ومن غريب الامر انهم كانوا يعتبرون كل هذا الجور وهذه الامور من آيات الدين والدين بريء منها ولولا ان يقوم في كل عصر رجال عرفوا بالعلم والاستقامة ويعملوا على انقاذ الذميين من هذه المصائب الحمراء لكان العيش لا يطاق ولا يذاق وهو مع ذلك كان لا يمكن للذي في صدره شيء من المروءة فجعل الناس يلجأون الى احد امرين اما الالتجاء الى وجيه او محارب من المسلمين واما الرحيل عن البلدة التي يسكنونها والاقامة في قرى لبنان او سواها حيث لم يكثر التعصب الى هذا الحد

﴿ منشور درويش باشا ﴾

والعجب ان الحكام كانوا يظنون ان ظلم اهل الذمة والتضييق عليهم واجب ويطالبونهم بالمحافظة على القوانين الوحشية التي ذكرنا

بعضها وهذا نص منشور ارسلهُ درويش باشا والي دمشق الى جماعة المسلمين في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ بهذا الشأن مع ان هذا الباشا يعد من اعدل وارحم الولاة الذين ولوا دمشق في ذلك الزمن . وهذا هو بحروفهِ

« صدر مرسومنا هذا المطاع الى مشايخ واختيارية اهالي قرية صيدنايا المسلمين ليجروا بحسبهِ ويعتمدوهُ فالبادي هو ان النصارى عندكم عمال يقلدوا الاسلام في ملابسهم وعمائهم ونعالهم وتعدوا درجاتهم وخالفوها فهذا ضد رضانا ولا يعطى بهِ رخصة فبناءً على ذلك ارسلنا لكم مرسومنا هذا لاجل ان تحذروهم وتنذروهم من عواقب ذلك المراد حالاً وتنبهوا عليهم الاَّ يلبسوا ملبوس ازرق وعمامة سوداء ونعال سود ولا تدعوهم يقلدوا الاسلام بادنى شيءٍ لا نساءً ولا رجالاً وان بلغنا ان واحد تعدى الحدود المذكورة فما لهُ لا يغني عن حالهِ وخطيتهُ في عنقهِ ونطلع من حقكم وحقهِ فبناءً على ذلك ارسلنا لكم مرسومنا هذا من ديوان الشام على يد رافعهِ فخر اقرانهِ جندي باشي ارقداشي محمد اغا فبوصولهِ تعملوا بموجبهِ وتتحاشوا مخالفتهُ اعلموهُ واعتمدوهُ والحذر من الخلاف في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ »

الختم

محمد درويش

ولهذا كان النصارى في حالة مكربة من الفقر ولم يمكن لهم معاطاة الاشغال التجاريَّة او الفلاحة وكان جل معاشهم من الصناعة وبعضهم يدير انوال نسج في المدن الصناعية كدمشق وحلب وحمص بمشاركة المسلمين وتحت حمايتهم . ورخص الاسعار في تلك الايام ساعدهم

على القيام باردهم وتحمل تلك المغارم الثقيلة التي كانت تعرض لهم كل يوم تقريباً. اما حالتهم من حيث المعارف فكانت متأخرة جداً لانهم كانوا اميين جهلاء لا يعرفون القراءة البسيطة والذي يحسن القراءة بينهم يحسب عالماً كبيراً وكان لبعضهم معرفة بالطب اخذوهُ بالارث وتعلموهُ بالمزاولة والاختبار حتى نبغ بعضهم فيهِ

﴿ ايام ابرهيم باشا ﴾

وظلَّ الحال على هذا المنوال والناس يظلمون وليس من منصف ويقتلون وليس من مشفق حتى صارت البلاد على شفا الخراب التام وكثرت فيها الثورات والقلاقل وكان عدد الذين يقتلون بلا ذنب ولا اثم كل يوم يعد بالمئات والحكومة تشجع الاوباش والاوغاد على هذه الامور او لا تقوى على ردهم عنها حتى منَّ الله بالفرج على البلاد الشاميَّة بدخول ابرهيم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر اليها فما لبث ان وصل حتى أمن الناس في الحال على ارواحهم واموالهم وعدل في قضاياهم ونظم امورهم وسهل طرق المعيشة والراحة عليهم وكان ذلك في اواسط عام ١٨٣١ ويعد حكم ابرهيم باشا في الشام بدء عصر التنوير والاصلاح فقد كان الذمي قبل ايامهِ لا يعد نفسهُ من الادميين فلما انتشرت راية العدل وعم الامن وتساوى الناس امام الحاكم وظهرت القوة التي كانت كامنة في الصدور خطا النصارى الخطوات الواسعة في ميدان الحضارة ونشطوا الى القيام بالاعمال الكبيرة ولم يزل اهل الشام يتحدثون بابرهيم باشا وايامهِ الى هذا الحين . وسنعود الى ذكر ايامهِ وحكمهِ

﴿ نطق شريف ﴾

الاَّ ان ابرهيم باشا القائد الباسل والحاكم العادل لم يظل مدة طويلة في بلاد الشام لان دولة الاتراك استعانت عليهِ بدولة الانكليز فاخرجتاهُ من الشام وما يليها واضطرتاهُ الى الرجوع الى مصر فعاد عنها وعادت الاحكام الى العثمانيين الاَّ انهم كانوا قد هبوا من رقادهم واشترطت انكلترا عليهم ان يصلحوا اداراتهم ويعدلوا في احكامهم وكلفت وكيلها السياسي في دمشق (الجنرال وود) بمراقبة اعمالهم والسيطرة على عمالهم . ولما انتهت الدولة التركيَّة من حرب القرم وعقدت محالفة باريز الشهيرة سنة ١٨٥٦ واهم بنودها اصلاح حال المسيحيين في البلاد العثمانيَّة نشر السلطان عبد المجيد نطقهُ المشهور الذي رفع عن عاتق الذميين ظلم الايام القديمة وقد رأَينا ان ننقل هذا النطق الشريف بحروفهِ هنا لاهميتهِ الكبرى وفائدتهِ التاريخيَّة وهذه صورتهُ

لا يخفى انهُ منذ ابتداء ظهور دولتنا العلية كانت الاحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة في غاية المراعاة الكاملة ولذلك كانت قوَّة سلطنتنا السنية وثبوتها مع راحة جميع الرعايا ورفاهيتهم وعمار البلاد في غاية ما يكون من الكمال . ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم يعد انقياد كما يجب ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة لسبب ما طرأَ عليها من الحوادث الكثيرة . ولهذا قد تحولت تلك القوَّة الى ضعفٍ والراحة الى التعب والعمار الى الدثار . واية مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تأول الى الاضمحلال . ومنذ جلوس سلطنتنا على تخت الخلافة اتجهت افكارنا الخيرية خاصة الى عمار البلاد وراحة العباد . فنظرًا الى مواقع ممالك دولتنا العلية واراضيها المخصبة وقابلية اهلها واستعدادهم اذا اخذ في

عمل الوسائط اللازمة يشاهد سرعة حصول المقصود بتوفيق الله تعالى في برهة خمس أو عشر سنين

فاعتماداً على عون الله تعالى واستمداداً بروحانية نبينا (صلعم) قد شوهد من الامور المهمة اللازمة وضع قوانين جديدة لحسن ادارة دولتنا العلية ومالكنا المحروسة . ونتيجة خلاصة هذه القوانين هي عبارة عن امنية الحياة وصيانة العرض وحفظ شرف الانسان واموالهِ وتعيين مال الويركو وطريقة اخذ العساكر ومدة استخدامهم . فلا يوجد في الدنيا شيء افضل من الحياة والعرض والشرف

فالانسان اذا نظر لهذه الامور وكانت على خلاف رضاهُ يئس من الحياة ويبادر الى حفظ حياتهِ وشرفهِ باعمال يؤذي بها الدولة والبلاد

وبخلاف هذا اذا كان مطمئناً على حياتهِ وعرضهِ وشرفهِ لا يحيد عن طريق الاستقامة ويكون مجتهداً في حسن الخدمة للدولة والملة

واذا كان الانسان غير مطمئن على مالهِ فيتأخر عن الاهتمام في كل ما يأول لنجاح الدولة وعمار البلاد بخلاف ما اذا كان مطمئناً عليهِ فيكون مهتماً في اعمالهِ ومجتهداً في توسيعها وتتضاعف عندهُ الغيرة للدولة والملة وحب الوطن ويبذل نفسهُ دونها . فهذا الامر يجعلهُ ان يكون مستعداً لكل فعلٍ حميد . واما ترتيب مال الويركو (اي المطالب الاميرية) فهو من اهم الامور لكون الدولة يقتضي لها نفقات كثيرة لتجهيز العساكر . وللدول ان تأخذ النفقات من الاهالي لصيانة المملكة

وقد امرنا برفع الحجر عن بيع كل صنفٍ من البضائع والمحصولات بيد شخص واحد الامر الذي كان الاقدمون يعتقدون انهُ اصل كل سعادة . وتفرض الاموال الاميرية على كل انسان بحسب قدرتهِ بالمال والاملاك . وان لا يطلب منهُ شيء خلافهُ

ومن الامور المهمة ايضاً وضع قوانين لتعيين مصاريف عساكرنا البرية والبحرية . ومن حيث ان صيانة البلاد امر واجب وفرض لازم فعلى الاهالي ان يندبوا انفاراً للعسكرية . فقد امرنا بوضع قوانين في كيفية اخذ الانفار على قدر امكان كل مكان ومدة اقامتهم في سلك العسكرية اربع سنين او خمس . لانهُ اذا اخذ انفار اكثر من طاقة الاماكن او مكثوا مدة حياتهم في العسكرية يكون ذلك

ظلماً وضرراً على العباد والبلاد ويصير الانفار ييأسون من حياتهم اذا مكثوا مدة طويلة . ومن الآن فصاعداً لا يقاص احد لا سراً ولا جهراً باي نوع كان من القصاص الا بعد الفحص والتدقيق تطبيقاً لشريعتنا الالهية . ولا يسمح لاحد ان يهين شرف الآخر كائناً من كان ولكل واحد الحرية الكاملة ان يتمتع باملاكه واموالهِ بدون معارض كما ان اقارب المذنب لا يقاصون بذنبهِ ولا يحرمون من ميراثهِ اذا كانوا ابرياء

فلتعم هذه الترتيبات جميع رعايانا من اية ملة كانت وليتمتع بها الجميع بدون استثناء وليكن اطمئناننا كاملاً ممنوحاً منا الى جميع اهالي المملكة على حياتهم وشرفهم واموالهم حسب فرائض شريعتنا المطهرة وقد امرنا بوضع مجلس للاحكام العدلية يكون نجبهِ وزراؤنا ووكلاء رجال دولتنا يتكلمون فيهِ بالحرية التامة لاجل ترتيب ما يلزم لاطمئنان الرعايا على حياتهم واموالهم وتعيين الاموال الاميرية . واما الشرائع المختصة بترتيب العساكر فتصير المفاوضة بها في المجلس العسكري تحت نظارة السر عسكر . وكل ما يرتبونهُ من الاشياء المستحسنة تعرض لسدتنا السلطانية فنشرفها في اعلاها خطاً بيدنا الملوكية لاجل المصادقة

ولما كانت هذه الترتيبات ليس لها غاية سوى تقدم الديانة والدولة والشعب وخير المملكة . فعظمتنا الشاهانية تتعهد ان لا تفعل شيئاً مخالفاً لها . وتأكيداً على الاقامة بعهدنا هذا نقسم بالله العظيم امام كل العلماء ووكلاء رجال الدولة في بيت الخرقة الشريفة وخلفهم ايضاً . وبعد ذلك كل من يخالف هذه الترتيبات يصير قصاصهُ على قدر ذنبهِ مع قطع النظر عن رتبتهِ واعتبارهِ . وبما ان للموظفين ماهيات كافية فيجري القصاص الصارم على كل من يقبل الرشوة التي تحرمها الشريعة الالهية وتكون سبباً لسقوط المملكة . وبما ان هذه القوانين المتقدم ذكرها قد جعلناها عوضاً عن القوانين القديمة فلتعلن ارادتنا الملوكية السنية في الاستانة العلية وفي سائر ممالكنا المحروسة وتعطى صورها ايضاً الى سفراء الدول المتحابة الموجودين في دار السعادة العلية لتكون دولهم شهوداً على دوامها الى ما شاء الله وعدا ذلك فليحفظنا الله بحفظهِ الالهي وكل من خالف هذه الترتيبات فليكن موضوعاً للعنة الالهية الى الابد آمين

وبعد نشر هذا المنطوق الشريف الذي جاء شاهداً عَلَى ما كانت عليهِ احوال الرعيَّة والمملكة من الاختلال ومخالفة الشريعة الغراء سارت البلاد عَلَى الخطة المرسومة فيهِ ولكن إِلَى حين

﴿ عودٌ الى الاصل ﴾

ولما عادت البلاد إِلَى رؤَسائها السابقين بعد خروج ابراهيم باشا من الشام فقد الشيء الكثير من الاصلاحات وضاعت اسباب الامن اَلَّتي وضعها ابرهيم باشا في مدة ولايتهِ اَلَّتي بلغت تسع سنين . ونظراً لضعف بعض الولاة وعدم اقتدارهم عَلَى السياسة الحسنة وحفظ الامور طبق رغبة الذات الشاهانيَّة طمع هؤُلاء الرؤَساء بالرجوع إِلَى الحالة اَلَّتي كانوا عليها واخذوا يتقدمون اليها شيئاً فشيئاً رغماً عن مراقبة القنصل وودّ فنشأ من ذلك فقد الامن في الطرق عَلَى المسافرين وكثر الاعتداء في الارياف وصار بعض اصحاب المقاطعات يكدرون الراحة في نواحيهم ويحملون عَلَى بعضهم بعضاً وراج سوق الافتراء والنهب والسلب والقتل في كثير من جهات البلاد وتأَتى عن ذلك ثورات كبيرة منها ثورة في لبنان وأُخرى في وادي التيم وبلاد القلمون عند ما عصى الامراء الحرافشة عَلَى الدولة وثورة بلاد النصيريَّة وثورة حلب ضد النصارى وغير ذلك ممَّا كان يستدل منهُ بان البلاد عادت لما كانت عليهِ . وسيأْتي بيان هذه الثورات في الفصول القادمة

واما المدن فكانت الحالة فيها احسن قليلاً واستمر فيها مبدأُ الاصلاح الذي بدأَ فيهِ ابرهيم باشا ولكن لما وقعت الحرب بين الدولة

العثمانيَّة وروسيا سنة ١٨٥٤ بدأ في المدن نفسها ما ابان بان نفوس الاهالي كانت إلى ذلك الحين ميالة إلى الحالة السابقة عند سنوح الفرص المناسبة حيث ثارت نيران الاضطهاد ضد المسيحيين فصاروا يهانون ويشتمون اشنع الشتائم حيثما ساروا واينما داروا ويعاملون معاملة وحشيَّة وان تكن اخف من معاملتهم السابقة ولم تقف هذه الحالة على حد الأ بعد انتهاء الحرب ونشر التنظيمات الخيريَّة كما تقدم . ومما جرى بعد خروج ابرهيم باشا من سوريا لحين نشر التنظيمات يظهر بان جرثومة الاختلال لم تتلاشَ من البلاد السوريَّة بل ضعفت نوعًا لتجدد قواها عند مناسبة الظروف والاحوال وهذا اقوى دليل على ان النكبات الَّتي اصابت الشام ما بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠ لم تكن الأ بسبب فساد الاحكام وظلم الحكام وسوف يظهر ذلك باجلى بيان عند تفصيل الحوادث الَّتي ستجيء . ونكتفي الآن بما تقدم من وصف حالة البلاد والعباد الَّتي كانت مقدمة لتلك الحروب والويلات

الَّتي لم يزل صداها يرن في الاذان

وترجف من ذكرها

الابدان